[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.7.6]

ابن الفارض والخمرة الروحية

الدكتور نادر نظام طهراني

كلية الآداب ـ جامعة العلّامة الطباطبائي

تحدّث الكاتب في هذه المقالة عن ابن الفارض: هل كان زاهداً أو صوفياً، وتطرّق إلى الحب الإلهي وتجريد الغزل من إنسانيته والرقي به إلى الحق تعالى، وانتقال الصوفية إلى الرمز في التعبير عن عواطفهم والميل إلى الخمرة واستعارة ألفاظها ونقلها عن دنيا المادة إلى صعيد الروحانية.

وأشار في مقالته إلى أنّ ابن الفارض اتّخذ الخمرة موضوعاً يستقل به عن بقية الأغراض الشعرية وتحدّث عن قصيدتين اقتصر فيهما على هذا الموضوع، وبيّن أنّ ابن الفارض وإن أورد فيهما أطوار الحب الإلهي كاملة كما يرى بعضهم غير أنّنا لا نرى فيهما قمّة الشعر من الوجهة الفنية وإنّ شعره في هذا الباب لا يخلو من الضعف والركاكة، وذلك لأنّه كان يترجم عن فكر دقيق لا تقوى لغة الشعر على نقله، وكان يسرف على عادة أهل عصره في طلب المحسنات اللفظية والفنون البديعية ويكثر من التقديم والتأخير والحذف.

وبيّن كاتب المقالة ماامتاز به ابن الفارض رغم كل مامرّ من اصالة شعرية وتذوّق للجمال وابداع موسيقي.

قد يشغل الإنسان عن نفسه، ويعيش لحبيب يذوب في ذاته، فلا يري هذه النفس إلّا من خلاله، ولا يشعر بوجوده إلّا في خفقات قلبه نحو هذا الحبيب، فينسى أنّه إنسان له رغباته وحاجاته وغرائزه ويغدو روحاً لاتنجلي إلّا عن صورة من يهواه، وعيناً لاتتفتح إلّا لرؤية جماله وجلاله. وقد عاش ابن الفارض هذه الحياة، جسمه في الأرض، وروحه في السماء، وفؤاده يهفو إلى الذات الالهية، وخمرتها الروحية، يهيم بحقيقة الوجود الكبرى، ويلتهب اشتياقاً إلى لقائها، والتمتّع بصفوها وجناها:

أروم وقد طال المدى منك نظرة
وكم من دماء دون مرماي طلت[1]

حتى جعل نفسه عبداً ورقّاً لذلك الحبيب، يجد اللذّة في سلاسل عبوديّته لاينفكّ عنها ولا يتحوّل:

عبد رق مارق يوماً لعتق
لو تخلّيت عنه ما خلاكا[2]

وابن الفارض هو شرف الدين أبو حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي بن مرشد[3]، ولد في مصر سنة ٥٧٦ هـ[4] أو في آخر الرابع من ذي القعدة من ٥٧٧ هـ[5] وتوفي في جمادي الأولى[6] سنة ٦٣٢ هـ[7].

وهو حموي الأصل، قدم أبوه من حماة في أواسط سورية إلى مصر فقطنها[8]. ويرجع نسبه إلى بني سعد قبيلة حليمة

السعدية[٩]. وقد عرف أبوه بالفارض لأنّه كان يشغل هذا العمل في مصر، فيثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكّام. وكان هذا الأب يميل إلى الزهد فأخذ الابن نزعة التصوف عن والده. فعاش ابن الفارض في كنف أبيه في عفاف وصيانة وعبادة وديانة، بل زهد وقناعة وورع وأسدل عليه لباسه وقناعه. فلما شبّ وترعرع اشتغل بفقه الشافعيّة وأخذ الحديث عن ابن عساكر، ثم سلك طريق الصوفيّة فتزهد[١٠]. وهنا لابدّ من أن نتساءل: هل كان ابن الفارض زاهداً أم إنّه كان صوفيّاً؟ لقد أصبح الزهد في القرن الثاني الهجري حركة ظاهرة، انخرط في سلكها الكثير من المسلمين، ولكن قرن ابن الفارض كان قد شهد حركة تحوّل الزهد إلى التصوّف، فبعد أن كان الطابع الأول تديّناً وعكوفاً على العبادة والإنصراف عن متع الدنيا وزخارفها، أصبح فيما بعد طهارة نفس، ونقاء قلب، واخلاصاً للّه[١١]، ورياضة روحيّة تهدف إلى الوصول إلى الحق والإتحاد به[١٢]، وكان لابدّ للتعبير عن هذا الحب الإلهي، ومايعاني المحبّ، من خطرات القلوب[١٣]. فظهر الشعر الصوفيّ الذي أخذ يتّخذ لنفسه استقلالاً بقدر ما كان لحياة الصوفيّة الروحيّة من استقلال عن الحياة العامّة، وصرف الشعراء منهم الشعر في معان مختلفة، تتفق كلّها بأنّها ترجمان لحالهم، وتعبير عمّا يحسّون في نفوسهم. ولكنهم وقفوا طويلاً عند معنى واحد، كثيراً ما تأجّجت أنفاسهم به، ألا وهو الحب الإلهي، أي التجرّد من كل حب آخر في الدنيا، وتوجيه أكبر طاقة شعورية عاطفية إلى الحق تعالى، لا لأنّه أعدّ الجنة لمن أطاعه، وخوّف بالنار من عصاه، كما يعتقد الزهاد، وإنّما لأنه منبع الجمال في الكون، ومصدر الخير في الوجود. وهكذا نزه هؤلاء عن حبّهم عن حب التجّار الذين يغريهم الربح، والعبيد الذين يرهبهم العقاب، وأرادوا أن يفصحوا عن هذا الحب الإلهي الذي غمر ذواتهم، وأن ينشروه ويشيعوه بين الناس، فحملوه من صفحات قلوبهم، ودوّنوه بالنثر والشعر. ولم يجدوا غرضاً من أغراض الشعر يمكن أن ينم عمّا في نفوسهم، ويعبّر عن ذلك الحب الإلهي الذي برى أجسادهم، وهدّ كيانهم، إلّا الغزل. فبدؤوا ينشؤون فيه القصائد والأسفار، ولكن بعد أن يجرّدوا هذا الغزل من إنسانيته، ويرقوا به إلى الحق تعالى بأن يتّخذوا مافيه من ألفاظ الغزل وعناصره رموزاً تشير عندهم إلى غير معانيها اللغوية الأصلية المتداولة.

كما كان الصوفيّة يشعرون في ذواتهم نشوة تمتلك وجودهم عند ذكر حبيبهم فأرادوا أن ينقلوا تلك النشوة أيضاً إلى لغة الحروف والكلمات، ولكنّهم وجدوا أنّ نقلها كما هي مستحيل، فقال الصوفيّ الأكبر ابن عربي: «ليس في مستطاع أهل المعرفة (الصوفيّة) إيصال شعورهم إلى غيرهم، وغاية مافي هذا المستطاع هو الرمز عن الظواهر لأولئك الذين أخذوا في ممارستها»[١٤]. فمالوا إلى الخمرة، واستعارة ألفاظها، ونقلها عن دنيا المادّة إلى صعيد الروحانيّة ليعبّروا بها عن غاية النشوة والسرور. وهو ماحدث في الفارسيّة والعربيّة فنظّموا شعراً يحملونه على محمل المجاز، وينسبونه إلى جهة التصوّف، فيجعلون فيه الخمر والقدح والساقي جميعاً إشارات رمزية إلى ماشاؤوا من المعاني المجرّدة الروحانيّة، فإذا الخمرة هي المعرفة الإلهية، والقدح قلب الانسان، والساقي هو اللّه تعالى، والسكر غيبة الحس عن الوجود للاتحاد بروح الوجود، والفناء في الحق سبحانه، وإذا ألحان مجتمع الاخوان في الطريقة الصوفيّة[١٥].

وهكذا عمّ عند الصوفيّة الغزل والخمريّات، وكانوا إذا تكلّموا عن الحبيب غمزوه بمعاني الغزل الانساني، أمّا حين يتكلّمون عن الحب نفسه فإنّ رمزهم إنّما يكون بالمعاني الخمرية[١٦]. ولم يكن المتصوّفة يجدون غضاضة في ذلك وهم الذين قرؤوا في القرآن الكريم أنّ الخمرة شراب أهل الجنان، وهم في حمى الرحمن. ويبدو أنّ كلمات الخمرة والسكر والكأس وما إليها من ألفاظ الخمريّات بلغت مدى بعيداً من الشيوع والإنتشار في دنيا المتصوّفة للتعبير عن الحالات العاطفيّة التي تنتابهم حتى أصبحت من الكلمات المألوفة الإستعمال عند عامّتهم، فقد حدّثوا أنّ ذا النون قال: «بينا أنا مارّ في شوارع مصر إذ رأيت جارية مسفرة بغير خمار، فقلت لها: ياجارية أما تستحين أن تمشي بغير خمار؟ فقالت: ياذا النون ماذا يصنع الخمار بوجه قد علاه الاصفرار؟ فقال ذو النون: ومن أيّ شيء علاه الاصفرار؟ قالت من محبّته. قلت: ياجارية عساك تناولت شيئاً من شراب القوم؟ فقالت: شربت من كأس ودّه، ونمت مسرورة، فأصبحت بحبّ مولاي مخمورة[١٧]». ورغم مايبدو في القصّة من أثر الوضع، إلّا أنّها تدلّ على أنّ التعبير بتلك الألفاظ عن النشوة الروحيّة بحبّ اللّه، أصبح عامّاً شائعاً.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]
[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.7.6]

Page 21

وكان ابن الفارض من الشعراء الذين اتخذوا من الخمرة والغزل رمزاً للمحبّة الإلهية، فاستعمل الكلمات المادّيّة للتعبير عن النبضات الروحيّة وكان يسبح في عالم الحب الإلهي في سكرة متناهية حتى إذا فاجأ نفسه الصحو، عاد إلى الدنيا المادّيّة ليدوّن مارأته هذه النفس وماسمعته بلغة فيها الكثير من الرمز والتمثيل.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ ابن الفارض لم يطرق هذا الغرض وحده من الشعر، ولم يكتف باتّخاذ الخمرة موضوعاً يستقل به عن بقية الأغراض الشعريّة، بل نجد عنده الصبابة والحنين والمناجاة، وفنّاً آخر من الشعر كان ينتشر في عصره، وهو فن الألغاز والأحاجي، التي وإن كانت تقوم على الوزن والقافية، لكنّها ليست سوى «كلام مؤلف معقود بقوافٍ[١٨]» كما يقول ابن سلام. ورغم أنّ حديث ابن الفارض عن الخمرة تناثر بين هذه الأغراض إلّا أنّ له قصيدة طويلة تبلغ أحداً وأربعين بيتاً، اقتصر فيها على التغنّي بالخمرة الروحيّة، فعُرِفَت بالخمريّة، مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقد بلغ الشاعر في هذه القصيدة قمّة الإبداع الشعري في التعبير عن النشوة بالقرب من الحقّ سبحانه، بالنشوة الخمريّة. وأضفى فيها من الخوارق والمعجزات مالم نتعوّد سماعه في وصف الخمرة قبله، وأظهر فيها من سموّ رفعها فوق جميع ماعرف البشر من الخمر، ولا عجب فهي صنو خمرة الجنان، ينتعش بها الشارب بلا سكر.

ولابن الفارض قصيدة أخرى طويلة بلغت شهرة واسعة، تزيد عن ٧٦٠ بيتاً، تبيّن طريق السالكين إلى الله منذ بدء حبّهم حتى نهايته بالفناء به سبحانه. وقد رأى محمّد مصطفى حلمي فيها أطوار الحب الإلهي كاملة[١٩]، إلّا أنّنا لا نرى في هذه القصيدة رغم الشروح الكثيرة لها، وما ثار حولها من ضجيج، قمّة الشعر من الوجهة الفنية، بل نجد فيها أحياناً من الضعف والركاكة ما لا نجد مثله في بقية أشعاره، وربما كان ذلك لأنّه يترجم فيها عن فكر دقيق لاتقوى لغة الشعر على نقله، ولأنّه كان على عادة أهل عصره يسرف في طلب المحسّنات اللّفظيّة والفنون البديعيّة، ويُكثر من التقديم والتأخير والحذف. والذي يهمّنا من القصيدة أنّه تحدّث فيها عن الخمرة، وشربه لمدامة الحب:

سقتني حميا الحب راحة مقلتي
وكأسي محيا مَن عن الحسن جلت

ونحن إذا ما درسنا أبيات الخمرة ممّا تضمنها ديوان ابن الفارض، نجد أنّ أوضح الخصائص ظهوراً فيها، تلك الروحانيّة العميقة التي تتألّق في كثير منها، بحيث يغيب عن عيوننا الجانب المادّي منها؛ وقد كان ابن الفارض حريصاً على أن ينص في شعره على أنّ خمرته ليست عاديّة، ولا أثرها هو الأثر المعروف في الدنيا، وإنّما يستخدمها ويستخدم أشكالها وصفاتها للتعبير عن المعاني الصوفيّة.

ولم يكثر شاعرنا من شعر الخمريّات كما ذكرنا بحيث تغيب الأغراض الشعريّة الأخرى. وإنّما طرق عدداً من الموضوعات الأخرى كالصبابة والغزل والحنين. وكانت كلّ هذه الأغراض تخدم غاية واحدة غلبت على حياته وهي تغنيه بالحب الإلهي، ولذلك كان رمزيّاً في أكثر شعره، يذكر أشياء ويريد غيرها، ولعلّ هذه الرمزيّة بالذات هي سرّ إقبال الناس عليه، لأنّ له في الفنون الشعرية هذه منافسون فحول في الأدب العربي.

ومع أنّ ابن الفارض لم يجعل الخمريّات الروحيّة همّه الأوحد فإنّه من الذين جعلوا هذا الفن غرضاً مستقلاً، وفناً متميزاً بين فنون أدب المتصوفة. ورغم أنّه سبق إليه وطرقه شعراء الصوفية قبله، إلّا أنّهم كانوا ينظمون فيه البيت والبيتين مثل حسين بن منصور الحلاج، وقد استفاد شاعرنا ولا شك ممّا وجده قبله من ذلك وتوسّع فيه.

والفارضي وإن تحدّث عن الخمرة إلّا أنّه لم يتطرّق إلى جميع مايتعلّق بها، فنحن لا نرى عنده وصفاً مسهباً لساقي الخمرة أو لمجلس الشراب أو لغناء القيان، وطواف الولدان. ولا نراه يذكر قصده لحانات الخمارين، ووصف مايجري في رحلاته إليها وغير ذلك ممّا نجده كثيراً متداولاً في شعر الخمريّات عامّة، ولا سيما عند أبي نواس. وربّما كان سبب ذلك أنّ خمريّات ابن الفارض لم تكن عنده غاية تقصد لذاتها، وإنّما يسخرها في خدمة الحب الإلهي فقط، فلذلك لم يكن يهتم بها إلّا بمقدار ماتعبّر عن هذا الحب الجليل.

واذا كان ابن الفارض قد أبدع في جعل الخمرة فنّاً قائماً

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.7.6]

بذاته، وغرضاً يُرمى إليه غير أنّه لم يستطع الإفلات عن دوامة عصره المولع بالصناعة اللّفظيّة وتكلّف أنواع البديع. فقد غرف كغيره من شعراء ذلك العصر من معين هذا الإتجاه التصنّعي. وتجاوز ذلك فلم يخل ديوانه من الألغاز والأحاجي التي هي أبعد مايكون عن سرحات الوجدان، وتدفق الأحاسيس وصفاء الذهن، ولا تعتبر في حال من الأحوال فنّاً شعريّاً، بل مسائل وأحاجٍ تدخل في علم الحساب والهندسة بعيداً عن مشاعر الجمال التي يحملها التصوير الفنّي، والخيال المجنح، والموسيقى العذبة. حتى لقد أكثر ابن الفارض من الجناس والطّباق فقال أحمد حسن الزيّات في ذلك: «وهو أكثر الشعراء تعملاً للكلام وتكلّفاً للبديع، وولوعاً بالجناس والطّباق»[٢٠].

ورغم أنّ ابن الفارض أغرق أحياناً في استعمال المحسّنات اللّفظيّة غير أنّه كان يعدّل ذلك بجمال النغمة الموسيقية، فكان شعره كما قال أنيس المقدسي «يجمع بين سلاسة البحتري وصنعة أبي تمام جمعاً لطيفاً»[٢١]، ولا شك في أنّ العنصر الموسيقي في الشعر له أهمية كبيرة في انتشاره وخلوده، وقد فطن الذين قرؤوا شعر ابن الفارض لما فيه من نغم مطرب، فغنّوا الكثير من قصائده، واقاموا حلقات الذكر، لسماعها.

وليس لنا في ختام مقالنا العابر هذا إلّا أن نقف من ابن الفارض وشعره وخمرته، موقف الأديب المتذوق لجمال العبارة، وابتكار المعنى، وإن ننظر إلى شعر ابن الفارض باعتباره ومضة من ومضات الجمال الفني التي تألّقت في عصر نضب فيه معين الشعر، وغدا ألفاظاً بلا معنى، وجسماً بلا روح.

المصادر والهوامش:

١ـ جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، أمين الخوري، ط ٥ ـ مكتبة الآداب، سنة ١٩١٠م، ص٥٤.

٢ـ نفس المصدر، ص١٨٧.

٣ـ وفيات الأعيان، ابن خلكان، المطبعة اليمنية في مصر، ١٣١٠هـ، ج١، ص٣٨٣.

٤ـ نفس المصدر ج١، ص٣٨٨. وكذلك حسن المحاضرة، السيوطي، ط مصر، سنة ١٢٩٩، ج١، ص٢٩٦؛ والنجوم الزاهرة، ابن تغري بردي، طبع دار الكتب بمصر، ١٩٣٠م، ج٦، ص٢٨٨.

٥ـ ديباجة الديوان في أول الشرح الذي جمعه رشيد بن غالب الدحداح من شرحي البوريني والنابلسي، مطبعة إدارة الوطن في مصر، ١٢٩٩هـ، ص٢٢.

٦ـ حسن المحاضرة، ج١، ص٢٩٧.

٧ـ شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي الدمشقي، طبع القاهرة، ١٣٥٠هـ، ج٥، ص١٤٩.

٨ـ شذرات، ص١٦٩.

٩ـ ديباجة الديوان، ص٩.

١٠ـ شذرات، ص١٤٩.

١١ـ كتاب التصوف في الشعر العربي، نشأته وتطوره حتى القرن ٣هـ، عبد الحكيم حسان، مطبعة الرسالة، ١٩٥٥م، ص٤٢.

١٢ـ نفس المصدر، ص٤٦.

١٣ـ التصوف الاسلامي في الأدب والأخلاق، زكي مبارك، ط٢، دار الكتاب العربي، ١٩٥٤م، ص٢٨٨.

١٤ـ الشعر الصوفي، نسيب الاختيار، مكتبة اليقظة بدمشق، ص٢٩.

١٥ـ الحان الحان، عبد الرحمن صدقي، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م، ص١٦٨.

١٦ـ التصوف في الشعر العربي، ص٤٠٢.

١٧ـ التصوف الاسلامي، ج١، ص٢٩٣.

١٨ـ طبقات الشعراء، محمّد بن سلام الجمحي، مطبعة دار المعارف بمصر، ص٩ـ المقدمة.

١٩ـ ابن الفارض والحب الإلهي، محمّد مصطفى حلمي، ط١، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥م، ص١٢٨.

٢٠ـ أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، أنيس المقدسي، ط٤، المطبعة الأميركانية، ١٩٥٣م، ص٤٠٥.

٢١ـ تاريخ الأدب العربي، ط١٤، مطبعة الأنجلو المصرية، ص٣٥٤.

[Downloaded from aijh.modares.ac.ir on 2025-01-16]

[DOR: 20.1001.1.23834269.1412.3.12.7.6]